مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الجزائريون السّوافة بالحاضرة تونس
لمحة عن تاريخ جالية وافدة زمن الحماية الفرنسية
١٨٨١ – ١٩٥٦

د. محمد السعداوي

دكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

أستاذ تعليم ثانوي -المعهد النموذجي ساقية الزيت

الجمهورية التونسية

مُلَخّص

تمثّل المقالة دراسة مونوغرافية تاريخية تعنى بتقديم لمحة عن تاريخ استقرار المهاجرين الجزائريين السوافة بمدينة تونس خلال الفترة الاستعمارية (١٨٨١- ١٩٥٦). وقد تطرقنا فيها إلى الظروف التي دفعتهم إلى الهجرة من وادي سوف بالجزائر إلى البلاد التونسية: فمنها عوامل تنفير دفعتهم إلى مغادرة موطنهم، ومنها، في المقابل، عوامل جذب رغّبتهم في اختيار الحاضرة تونس مستقرًا لهم. وتبيّن أن الأسباب المنفرة كانت أكثر فاعلية من الأسباب الجاذبة بالنظر إلى الواقع المتردي بتونس خلال تلك الفترة. وكانت هجرتهم في إطار حركية مجالية شملت المجال المغاربي، وتحولت تونس العاصمة قطبا لاستقبال وفود مغاربية وأوروبية وغيرها، ووجهة للنازحين من داخل البلاد. ومثّل السوافة فصيلاً سكانيًا بالعاصمة التونسية، حيث استقروا في عدة أحياء على غرار الربضين: باب سويقة وباب الجديد. ونجحوا في التوطن بمدينة كانت تعيش وضعًا عصيبًا زاده الاستعمار تأزما. وقد اندمجوا في مجتمع الحاضرة، ومارسوا مهنا متنوعة، فكانوا بالأساس سقّائين "قرباجية" - مهنتهم المميزة- وهي مهنة بسيطة، ومنهم تجار ومالكي عقارات. وكان اندماجهم حذرا في بيئة اجتماعية متعددة المكونات وكثيرة الانفتاح.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٣ أكتوبر ٢٠٢٢

تاريخ قبول النشر: ١٦ نوفمبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

تاريخ؛ هجرة؛ السوافة؛ توطّن؛ تونس؛ التاريخ الحديث والمعاصر

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.310495

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد السعداوي. "الجزائريون السّوافة بالحاضرة تونس: لمحة عن تاريخ جالية وافدة زمن الحماية الفرنسية ١٨٨١ – ١٩٥٦"- دورية كان التاريخية- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١٠٨ – ١١٤.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: saadaoui_med@hotmail.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

تناولت كتابات عديدة موضوع حركة تنقل السكان بالمجال المغاربي خلال الفترة الاستعمارية، فبرزت أعمال حول هجرة الجاليات المغاربية إلى تونس بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين. وكان الجزائريون السّوافة من بين تلك المجموعات التي هاجرت إلى تونس العاصمة، ودُرِسَ التحرك المجالي لتلك الجالية بشكلين: فقد كانت هجرة السوافة إلى مدينة تونس محور اهتمام ضمن سياق عام يعنى بالجاليات المغاربية بالبلاد التونسية، أو كذلك الجاليات الجزائرية بتونس؛ وكانت تلك الحركة الهجرية، هجرة السوافة إلى البلاد التونسية موضوعًا خاصًا لدراسات مجهرية. وسنسعى، بين هذين التمشيين، إلى البحث في استقرار السوافة بالحاضرة تونس، وقد استعرنا من أسس الميكروستوريا أو الميكرو- تاريخ أو التاريخ المجهري، مصطلح "المجال الضيق"[1] بالتركيز على مدينة تونس، لنعيد النظر في الموضوع من زاوية هي أقرب إلى المونوغرافيا التقليدية أو المبحثة[2] بتسليط الضوء على مجموعة بشرية محدودة العدد. وسنركز الاهتمام على المهاجرين السّوافة باعتبارهم جالية وافدة استقرت بتونس العاصمة دون إسهاب القول في هجراتهم الموسمية بين البلدين. واخترنا أن نتزّل توافدهم وتوطّنهم في الإطار الاقتصادي والاجتماعي بالمنطقة، وخاصة تونس العاصمة، خلال فترة الحماية الفرنسية. وقد كانت مدينة تونس قطب استقبال لوفود داخلية وخارجية تزايد دفقها مع تفاقم الأزمات ولا سيما منها ما نتج عن الحربين العالميتين. فما هي ظروف توافد السّوافة على تونس؟ وكيف استقروا بالحاضرة واندمجوا في مجتمعها؟

أولاً: توافد السّوافة على مدينة تونس

١/١-الهجرة إلى تونس بين دوافع التنفير وجاذبية الترغيب

السوافة هم سكان وادي سوف الواقع بالجنوب الشرقي الجزائري، والذي يتسم ببيئة صحراوية وبحضارة واحيّة. وقد شكلوا مع مجموعات جزائرية أخرى مثل المزابية والورقلية تيارًا هجريًا نحو البلاد التونسية عقب التدخل الاستعماري الفرنسي بالجزائر سنة ١٨٣٠. وقد تفاقمت هجرة هؤلاء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. واختار قسم هام من السوافة الانتقال إلى العاصمة تونس بحثا عن العمل، ومنهم من استقر بالمدينة وعمّر بها.

ولم يكن من السهل على السوفي ترك موطن الأجداد والعيش غريبًا في أرض غير أرضه، بل دفعته ظروف ملحّة إلى الهجرة حتى استسلم إلى عواصف التنفير وجاذبية الترغيب. فقد كانت ظروف العيش بمنطقة الجنوب الجزائري وتحديدا وادي سوف متدهورة وازدادت الأوضاع سوءا عند احتداد الأزمات على غرار ما عاناه السّوافة من نقص في التموين خلال الحرب العالمية الثانية، ويضاف إلى ذلك تواتر فترات الجفاف، خاصة منها التي استمرت من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٧، والتي كانت تداعياتها وخيمة على النشاط الفلاحي المتمثل أساسًا في إنتاج التمور[3]. وقد أدت تلك الظروف إلى نقص في الموارد وتدنّ في مستوى العيش. وازدادت الأحوال عسرا في وادي سوف بسبب انتشار الأمراض والأوبئة التي هددت حياة السكان في ظل تدني ظروف الرعاية الصحية[4]. ولا يغيب عن الأذهان ما تسبب فيه الاستعمار الزراعي الفرنسي من اضطراب في علاقة السّوفي بأرضه حيث سُلِبَتْ الملكيات من أصحابها،[5] وأجبر الكثيرون على الهجرة ومغادرة المنطقة. وقد عمّق الاستعمار أزمة مجتمع الأرياف والبوادي، ومنها المجتمع السّوفي بحضره وبدوه، حتى أصبحت المدن ملاذا نحو حياة أفضل. وتوفرت مدينة تونس على مؤهلات أو مقومات أسالت لعاب مجموعات كثيرة، منهم السّوافة.

لقد حظيت البلاد التونسية بتشريعات متميزة كانت نتاجا للحركة الإصلاحية خلال القرن التاسع عشر، فصدر قانون عهد الأمان سنة ١٨٥٧، ومن بعده دستور ١٨٦١، وهما نصان يضمنان للأجانب الأمان الكامل، ويمنحانهم الحق في التملك والتجارة. وتحدّث بعض الأوروبيين عن درجة الاستقطاب العالية التي تمتعت بها مدينة تونس حتى أنها كانت أكثر جذبا من أحياء الجزائر بفضل ما توفرت عليه من رفاه شرقي، ومقاه وحمامات، وحفلات شرقية، وأشغال عمومية، وجامعة الزيتونة، ومكتبات، وحلقات أدب، وإدارة تونسية متميزة...الخ[6] فحفّزت تلك المغريات السّوافة أو بعضهم على الاستقرار بتونس العاصمة، وكانت تونس في مخيالهم "بلد الشّغل والسّعادة".[7]

في الحقيقة، لابد من مراجعة القول المتصل بجاذبية مدينة تونس وقوة استقطابها للمهاجرين السوافة، وللجاليات المغاربية عموما، لأنها، في الواقع، لم تكن مدينة الأحلام في فترة الحماية الفرنسية، ولا سيما في الفترات الحالكة مثلما كانت الحال بين الحربين العالميتين. لقد تزايدت تشكيّات الأهالي - سكان الحاضرة- من ارتفاع أسعار المواد الأساسية في السوق

السوداء كالزيت والفحم وغاز الوقود، وكانوا يطالبون بالتصدي للمضاربين.[٨]

ارتفاع أسعار بعض المواد الغذائية الأساسية بتونس خلال الحرب العالمية الثانية[٩]

المادة	القسط الشهري للفرد الواحد	السعر القانوني	سعر سوق السوداء
الخبز	٢٥٠ غرام	٥,٢٠ فرنكا/ ١ كغ	من ٣٥ إلى ٥٠ فرنكا/ ١ كغ
السكر	٣٠٠ غرام	٩ فرنك/١ كغ	من ٤٠ إلى ٥٠ فرنكا/ ١ كغ
الزيت	نصف لتر	من ٢٨ إلى ٣٣ فرنكا/ ١ لتر	من ٧٠ إلى ٨٠ فرنكا/ ١ لتر

ويضاف إلى ذلك انحسار الواردات وقلة موارد التزويد بالمواد الغذائية، فاضطرت السلطات الاستعمارية إلى توزيع المؤونة على السكان بالتقسيط.

وشهدت الحاضرة تونس حركة نزوح كثيفة، وغير مسبوقة فتوافد عليها من الجهات الداخلية للبلاد بين سنتي ١٩٣٦ و١٩٤٦ حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة[١٠] حتى اختنق المجال الحضري، وتعمّقت أزمة المدينة التي صارت عرضة لظاهرة "ترييف استثنائية" منذ الحرب العالمية الأولى[١١]، وجلب عادات البادية إلى الفضاء المديني. وانتشر الفقر والبؤس وتفشت البطالة، فقد تم إحصاء ٥٣٥٠٩٩ فقير بالبلاد بعيد الحرب العالمية الثانية بنسبة ٢٠,٧٩ % من مجموع السكان، دون احتساب فقراء مدينة تونس، بمعنى أن خمس السكان كانوا لا يقدرون على توفير الحد الأدنى من مستوى المعيشة سنة ١٩٤٨.[١٢] وبرزت ظاهرة جديدة تمثلت في احتراف التسول، فقد بلغ عدد المتسولين بالحاضرة ٤٦٩٣ متسولا سنة ١٩٣٤.[١٣]

عدد النازحين بالبلاد التونسية بين سنتي ١٩٢٦ و١٩٥٦[١٤]

الفترة	عدد النازحين	مجموع النازحين
١٩٢٦ -١٩٣٦	١٠٠٠	٩٠٨٤
١٩٣٦ -١٩٥٦	١٤٠٠٠	٢٨٤٣٥٥

واذا تأرجحت همّة السوفي بين رغبة جامحة في انعتاق من العيش في مجال منفّر، وتعلّق شديد بعالم جذّاب ومرغّب في الاستقرار والتعمير، فإنه يجوز القول إن مدينة تونس رغم حالتها المتردية في فترة الاستعمار، قد كانت أوفر حظا من جهات أخرى بالمنطقة المغاربية، وخاصة الجهة الصحراوية التي انحدر منها السّوافة، فكانت تونس بالنسبة إليهم خيارا بديلا عن موطنهم وهو خيار بين أمرين أحلاهما مرّ، فمهما كانت الحالة بتونس تعيسة والحياة بها ضنكى بسبب ظروف مستعصية، فإن الاستقرار بها في نظر السوافة كان هو الملاذ الوحيد حتى يأمنوا شر الاستعمار، ويضمنوا حدًا أدنى من العيش يحفظ لهم كرامتهم.

٢/١-توافد السوافة على مدينة تونس قبلة الأخلاط والأجناس

لقد كان المجال المغاربي منفتحا على تيارات هجرية متعددة داخلية-داخل المنطقة-وخارجية. ووفد على البلاد التونسية منذ التدخل الاستعماري بالجزائر مهاجرون جزائريون خاصة من جهتي التل والصحراء. وكان السوافة يهاجرون إلى تونس وأغلبهم من جنس الذكور، فعلى عشرة رجال نعدّ امرأة واحدة مهاجرة.[١٥] وقد كانت حركة السوافة نحو تونس مألوفة منذ الفترة الحديثة، حيث كان هنالك تقارب حضاري وعلاقة جوار متينة بين مجتمع وادي سوف ومجتمع الجريد بالجنوب الغربي التونسي. وقد بدأ توافدهم إلى الحاضرة يتقلّص بين سنتي ١٩٣٩ و١٩٥٦، في الفترة التي تراجعت فيها الحركية الهجرية عموما نحو تونس العاصمة[١٦]. وكان تنقل السوافة اعتياديًا بين تلك المدينة ومسقط الرأس، ومن الدارج عندهم، كما هي الحال عند الورقلية، ترك العودة إلى الموطن الأصلي بصفة نهائية في صورة زواجهم بتونسيات، على عكس المزابية الذين كانوا مشدودين أكثر إلى العودة حتى بعد انقضاء ثلاثة أعوام أو أربعة مقاما بالحاضرة.[١٧]

ولقد نجح المهاجرون السوافة إلى تونس في كسر حواجز الرقابة الحدودية التي كانت تفرضها السلطات الاستعمارية التي ما انفكت تسعى جاهدة إلى تجزئة المجال المغاربي وتطويعه، فتحولت حركة السكان الخارجة عن طوق الرقابة إلى هجرة سرية وجبت مقاومتها. ويعزى ذلك التشديد إلى عدة أسباب أبرزها الاحتراس من تنقّل الجزائريين نحو تونس حتى لا يكون سببًا في تكوين اضطرابات ثورية.[١٨] وكانت السلطات الفرنسية تضيّق الخناق على الجزائريين المقيمين بتونس، وتضغط على السلط التونسية لكي تغلق في وجوه الوافدين من الجزائر أبواب الاستقرار بها ولكي لا تتحول تونس إلى قاعدة خلفية للمقاومة الجزائرية.[١٩]

وكانت وفود السوافة على تونس العاصمة من بين وفود عديدة أخرى، لذلك كانت المدينة واجهة استقطاب لأخلاط من

الناس، وفضاء متعددا وديناميكيا un espace pluriel et dynamique[٢٠]. فاستقبلت نازحين من دواخل البلاد، وأوروبيين من إيطاليين ومالطيين. وكان الفرنسيون من أكثر الوافدين على المدينة عددا، وكانت هنالك أيضا الجاليات المغاربية من طرابلسية وجزائرية ومغربية. ولم تكن الحاضرة قادرة على استيعاب الأدفاق الهجرية الكثيفة التي ارتفع تدفقها في سيل منهمر، كلما اشتدت الأزمات في ظروف متصلة بالحروب أو/ ولعوامل طبيعية مناخية مرتبطة أساسا بكثرة الجفاف: ففيما بين الحربين العالميتين استقبلت مدينة تونس ٣٠٠٠ نازح من البدو منحدرين من المناطق الداخلية[٢١]، فغصّت بهم المدينة وانتشرت بنواحيها المباني الفوضوية المتمثلة في الأكواخ، كما ساهموا في تنامي أمراض اجتماعية على غرار السرقة والبغاء العلني والسري.[٢٢]

وشملت حركة اللجوء إلى مدينة تونس خلال الحرب العالمية الثانية أعدادا كبيرة من اللاجئين الفرنسيين الذين سهلت لهم سلطات الحماية قدومهم، وهو أمر أقلق الأوساط التونسية كثيرا تخوفا من كثرة الاكتظاظ.[٢٣] ونتج عن تلك الحرب بروز هجرات سرية إلى تونس مثل المتسللين عبر الحدود البحرية من الإيطاليين القادمين من صقلية الذين نزلوا بسواحل الوطن القبلي سنة ١٩٤٧[٢٤]. وكانت مدينة تونس، رغم تأزمها الذي بات مزمنا طيلة الفترة الاستعمارية، جنة موعودة في عيون أشباح من المعدمين قادمين من الآفاق حالمين بانعتاق من بؤس مقيت نغّص حياتهم، وزادهم الاستعمار تعاسة وفقرا. وحل السّوافة بالمكان على فترات متعاقبة للسبب نفسه تقريبا، وتقاسموا العيش مع مجموعات تونسية ومغاربية وأوروبية متعددة، فكيف استقروا بالعاصمة تونس؟ وكيف اندمجوا في مجتمعها؟

ثانيًا: استقرار السّوافة بتونس العاصمة

٢/١-توطّن السّوافة بالحاضرة

إذا كانت هجرات السّوافة إلى تونس في الغالب موسمية، فإن مجموعة مهمة منهم استقرت بالمدينة، فحسب تعداد سكاني لسنة ١٩٣٩ بلغ عددهم ٢٣٠٠ نسمة من جملة ١٣٠٠٠ جزائري بتونس العاصمة، أي بنسبة ١٧,٦٩ % [٢٥]، بعد أن كانوا يمثلون ٣٠ % من مجموع ٨٦٧٢، عدد الجالية الجزائرية بتونس سنة ١٩٢١.[٢٦] ويعتبر وجود السّوافة بمدينة تونس هاما، خاصة أن الجزائريين كانوا يمثلون أكبر عدد من "الأجانب المسلمين" بنسبة ٧٥ % في السنة نفسها.[٢٧]

وكانت رابطة الزواج دافعا قويا وحافزًا حاسمًا على استقرار السوافة بالحاضرة تونس، فبالتقريب كل المستقرين منهم بها في إطار أسري كانوا متزوجين من تونسيات من أسفل الهرم الاجتماعي تناسبا مع وضعهم المتدني، وكان كل ذلك يحصل في الغالب لأن المرأة السوفية يصعب عليها ترك موطنها بإرادتها.[٢٨] وقد سكن السوافة بنواح متعددة من مجال معمار تونس العاصمة فاستقروا مثلا بربضيْ باب سويقة، وباب الجديد، وبنهج باب الخضراء، وبباب سعدون، وبنهج سيدي البشير، وبراس الدرب.[٢٩] واستوطنوا بأحياء تكونت بفعل الأدفاق الهجرية في النصف الأول من القرن العشرين على غرار الملاسين والجبل الأحمر،[٣٠] وهي أحياء قصديرية ذات بناء عشوائي، وسكانها من طبقة اجتماعية سفلى، ومنبوذون من بَلْدِيَّةِ الحاضرة.

لقد استقر الجزائريون السوافة بتونس العاصمة، وشكلوا عنصرًا مكونًا لنسيج سكاني فسيفسائي بها. وقبل التطرق إلى مظاهر اندماجهم في المجتمع الجديد، ارتأينا إثارة نقطة متصلة بمدى تقبّل التوانسة للوافدين منهم، ففي قراءة مصدرية لوثيقة أرشيفية، تبيّن لنا انزعاج سكان العاصمة التونسية من نزيف توافد الأوروبيين خاصة على ربض باب سويقة في شهر سبتمبر من سنة ١٩٤٢، واعتبروا أن ذلك قد يهدّد أمنهم الغذائي ويتسبب في نقص مؤونتهم.[٣١] وفي المقابل، لم نعثر على وثيقة تتضمن ما يفيد عدم تقبّلهم للوافدين السوافة ولا للوافدين المغاربيين أو العرب، بصفة عامة، إلا أنهم أبدوا بعض القلق- كما أسلفنا الذكر- إزاء نزوح جموع البدو الذين كان يُخشى منهم إفساد العيش بالمدينة. ولم يكن السوافة الذين استقروا بالعاصمة تونس من بين العناصر غير المرغوب فيها les indisérables التي مثلت عبئا على المدينة، واستوجب الأمر تدخلا لتطهيرها منهم.[٣٢]

٢/٢-اندماج السّوافة في مجتمع مدينة تونس

لقد ساهم السوافة في تنشيط الحركة الاقتصادية بمدينة تونس، لأنهم كانوا يمثلون قوة عمل، حتى إنه كان معروفا عنهم أنهم لم يكونوا يعزمون على القدوم إلا لما يكون لديهم علم مسبق بوجود موطن شغل. وقد فرضوا وجودهم خاصة في المهن الشاقة وغير المرغوب فيها أحيانا، كالعِتالة وتنظيف الشوارع وقنوات الصرف الصحي، ومسح الأحذية وتلميعها.[٣٣] ولم يستنكفوا من تلك الأعمال التي كانت متاحة لديهم، والتي وجدوا فيها مصدرا للرزق، في الوقت الذي كانت فئة البَلْدِيَّةِ

تحتكر فيه المهن "النبيلة" ولا تسمح لـ "البرانية" (الغرباء) بمشاركتهم إياها حفاظا على مقومات تميزهم الحضري.[٣٤]

واختص السوافة أو عرفوا بامتهان حرفة القرباجي، سقّاء الماء، le métier le plus type، فقالت عنهم جرمين مارتي *Germaine Marty* واصفة عملهم: **"نصادفهم غالبا حاملين على ظهورهم قربا من جلد المعز، مملوءة من الحنفيات العمومية... ويلبسون مآزر سميكة من الجلد لتحميهم من الماء. وكانت سيقانهم عارية."**[٣٥]. ويبرز هذا الوصف وضعية مهنية شاقة، وحياة قاسية يصارعها السوفي من أجل توفير مصدر عيشه، فكان القرباجي يوصل الماء إلى المساكن بمقابل خمسة فرنكات للقربة الواحدة.[٣٦] واختص السوافة بتلك المهنة، وكانوا مشهورين بها في الحاضرة تونس، لأنها عمل احترفه أجدادهم في موطنهم بوادي سوف، وتوارثوه جيلا بعد جيل. وكانوا بواسطة القرباجية يقدمون شغلا ذا بعدين: بعد اقتصادي، وذلك بتوفير رصيد من اليد العاملة في ذلك الميدان، وبعد اجتماعي، وذلك بتزويد السكان بالماء باعتباره موردا حياتيا.

وتمتع بعض السوافة بمهن الفئات العليا- فئة الأعيان وعلياء القوم، كامتلاك العقارات والحمامات وممارسة التجارة الكبرى. وكان أولئك منحدرين من طبقات سوفية غنيّة قدمت إلى تونس منذ زمن بعيد،[٣٧] وعلى سبيل الذكر لا الحصر، فقد تحوّل بعضهم إلى ملاكين كبار ومستثمرين بتونس العاصمة، منهم الشريف بن محمد بن صالح الذي امتلك عقارات كثيرة بالمدينة وكان شيخ الطريقة القادرية بوادي سوف سنة ١٩٤١، وكذلك عمارة بن صالح الذي ملك مغازة كبرى لبيع الزيت وفندقا بباب الخضراء.[٣٨] وتؤكد هذه المعطيات أن مدينة تونس ضمت من السوافة من صاروا من أرباب الأعمال، وضمنوا لأنفسهم مكانة اجتماعية مرموقة في مجتمع الحاضرة.

أما من جانب المؤانسة la sociabilité، فكان معلوما عن السوفي أنه إنسان انطوائي بعض الشيء، وبطيء الاندماج؛ فكان السّوافة، في الأيام العادية، يعيشون شبه معزولين عن بقية سكان المدينة، ولكن سرعان ما يندمجون في مناسبات الحفلات مثلا.[٣٩] ويعزى عسر اندماجهم، حسب بعض الدارسين، إلى بيئتهم الاجتماعية المحافظة، ورفضهم الاختلاط، وحذرهم الشديد من المجتمع التونسي الذي كان يبدو لهم كثير الانفتاح والتحرر،[٤٠] فاحترسوا من مغبّة تفسّخ هويتهم السوفية. ومألوف أن السوفي لا يعاقر الخمر[٤١]، ولكن يبدو أنه مع تقدّم السنوات انجذب السوافة أو حتى قلة منهم إلى أجواء تونس، وانغمسوا في ملاهيها، فتحدثت المصادر عن العثور على جثة رجل سوفي بأحد شوارع المدينة كان معتادا على السّكر.[٤٢] ولا نخال أن الحالة معزولة، ولا العينة التي سقناها يمكن أن تفضي إلى استنتاج متهافت، بل حتى وان كانت الحالات من نوع هذا الاندماج قليلة في صفوف السوافة، فإنها تعتبر مؤشرًا دالاً على قوة تأثير مجتمع الحاضرة على الوافدين عليه رغم حرصهم الشديد على التمسك بخصوصيات أصالتهم. ويُرجح أن يكون انتقالهم للعيش بمدينة تونس منعرجا هاما في حياتهم حوّلهم من "بداوة الجمل"[٤٣] ذات البيئة الصحراوية، إلى عالم الحضر والتمدن في أكبر تجلياته، شأنهم في ذلك شأن المجموعات التونسية التي نزحت من الجنوب. وإذا كانوا قد تعايشوا مع الأوضاع التي كانت سائدة بتونس خاصة في أزمنة المساغب، فإن الموازنة بين الحفاظ على كينونة أصالتهم المرتكزة على مقومات النظام القبلي، وبين التأقلم مع مظاهر الحياة الجديدة في مجتمع متعدد الأخلاط والأجناس لم تكن حقا أمرًا سهلاً.

خلاصة القول، سارت مجموعة السّوافة من عالم الواحة السّاكن إلى عالم الحرف والصنائع والحركة والضجيج، حيث كل شيء فيه يبدو مختلفا، وانغرست في بيئة اجتماعية – مجتمع الحاضرة تونس- منفتحة وكثيرة التنوع بفعل تعدّد الجاليات التي ضمّتها منذ عهود بعيدة، فاندمجت مع بقية السكان، وكان لها إسهام في تنشيط الاقتصاد عبر الاستثمار، ومن خلال إقبالها على الأعمال بما فيها التي رغب عنها غيرهم "لوضاعتها". والأكيد أن دورهم في الإثراء الحضاري كان محفوظا بفضل ما جلبوه من عادات وتقاليد مميّزة لمنطقة وادي سوف وكذلك بفضل تمريرهم إياها إلى التونسيين.

خَاتِمَةٌ

لقد كانت هجرة السّوافة باتجاه البلاد التونسية وتونس العاصمة نشيطة، وفي تدفق متواتر ومستمر. ورغم التضييقات الاستعمارية على الحركة الحدودية بين البلدين، إلا أن حركة تنقلهم لم تتوقف، فوفدوا إلى مدينة تونس متجاوزين الرقابة المشدد التي كان يفرضها المستعمر. وكان دافع تحسين ظروف العيش التي أزّمها الاستعمار الفرنسي بالجزائر من أبرز العوامل التي ساهمت في توافدهم على المدينة وخيارهم الاستقرار بها. ومع أن الهجرة إلى تونس لم تحقق لهم كل آمالهم التي تركوا من أجلها موطنهم، بسبب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية التي كانت تخيّم على الحاضرة، فإنهم استطاعوا بفضل

جاهزيتهم ودافعيتهم إلى العمل الاستقرار وحتى الاستثمار في مجالات كانت حكرا على طبقة الأعيان.

وفي النهاية، لا يمكن اعتبار السوافة فئة قليلة مهمشة في الحاضرة تونس، مقارنة ببقية الجاليات الوافدة، ولم تكن مواقف سكان المدينة مناوئة لوجودهم، ولم تصدر في شأنهم تشكيّات تعكس انزعاجا منهم أو رفضا لتوطنهم. ولا يمكن أن نتناول تاريخ استقرارهم بها ضمن تاريخ المهمشين، حتى وان كان عددهم محدودا فانهم، بحكم التوأمة الحضارية بين تونس والجزائر منذ تعمير الإنسان لمجال شمال أفريقيا، يعدّون مكوّنا لسكان العاصمة تونس أهلا للاعتبار مثل الجاليات الوافدة المغاربية أو المسلمة بصفة عامة، وكذلك لا يختلفون عن المجموعات التونسية القادمة من بلدان الآفاق مثل الجرابة والغمراسنية والمطاوة وغيرها.

الاحالات المرجعية:

(١) التيمومي (الهادي)، **المدارس التاريخية الحديثة**، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ٢٠١٣، ص ٢٢٩.

الميكروستوريا تيار تاريخي ظهر بايطاليا في أول سبعينيات القرن العشرين. ولمزيد الاثراء حول المفهوم يمكن العودة إلى:

Ginzburg (Carlo), Poni (Carlo), « la micro- histoire », Le Débat, n° 17, 1981, pp 133- 136.

(٢) العروي (عبد الله)، **مفهوم التاريخ**، الجزء الأول، الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٨٩. يطلق عبد الله العروي على المونوغرافيا عبارة "المبحثة".

(٣) زقب (عثمان)، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف ١٩١٨-١٩٤٧ وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف يوسف مناصرية، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، السنة الجامعية ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص ١٦٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٥٠-١٥٢.

(5) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud dans la ville de Tunis pendant l'époque coloniale (1881- 1956) (Mozabites, Souafas, Ouarglias), mémoire de DEA en histoire contemporaine, Direction Habib Kazdaghli, Université de La Manouba, Tunisie, année universitaire 2003- 2004, p 15.

(6) Marty (Germaine), « les Algériens à Tunis », IBLA, n°43- 44, 1948, pp 301- 334, p 302.

(7) Ibid, p 315.

(٨) **الأرشيف الوطني التونسي (أ.و.ت)، سلسلة الحركة الوطنية، صندوق ٤٣، ملف ١، (١٩٣٩- ١٩٤٥)**، رسالة من مدير الأمن العام إلى الكاتب العام للحكومة التونسية، ١ سبتمبر ١٩٣٩.

(9) Khlifi (Omar), Moncef Bey Le Roi Martyr, Edition Kahia, Tunis, 1994, p 145.

(١٠) القصاب (أحمد)، **تاريخ تونس المعاصر (١٨٨١- ١٩٥٦)**، تعريب حمادي الساحلي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨٦، ص ٢٧٢.

(١١) المرجع نفسه، ص ٢٧٨.

(١٢) القسنطيني (الكراي)، " الفقر والفقراء في تونس (١٩٤٥- ١٩٤٨)"، **المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي**، بيت الحكمة، قرطاج- تونس، ١٩٩٩، ص٥٣٥- ٥٨٦، ص ٥٦٧.

(١٣) التيمومي (الهادي)، **تاريخ تونس الاجتماعي**، دار محمد علي الحامي للنشر، صفاقس- تونس، ١٩٩٧، ص ١٤٧.

(١٤) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

(15) Marty (Germaine), « les Algériens … op, cit, p 302.

(16) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud … op, cit, p 29.

(17) Ibid, p 118.

(١٨) غالم (محمد)، "من أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر: الوثائق الفرنسية والهجرة إلى الديار الإسلامية"، **مجلة إنسانيات**، العدد ١٢، الجزائر، ٢٠٠٠، ص٢٧- ٣٨، ص ٢٧.

(١٩) العيد (فارس)، **علاقات الجزائريين بالمغرب الأقصى وتونس (١٨٤٨- ١٩٣٠)**، أطروحة دكتورا، إشراف د. حمدادو بن عمر، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران ١، أحمد بن بلة، الجزائر، السنة الجامعية ٢٠١٦- ٢٠١٧، ص ٩٦.

(20) Gharbi (M. Lazhar), «L'historiographie tunisienne de la période moderne et contemporaine et son espace», Savoirs historiques Au Maghreb, Construction et usages, Coordination Sami Bergaoui et Hassan Remaoun, Editions CRASC, 2006, pp 65- 80, p 73.

(٢١) **(أ.و.ت)، سلسة أ، صندوق ٤، ملف ١٨/١، (١٩٣١- ١٩٤١)**، مراسلة المراقب المدني بتونس في ٢ ماي ١٩٣٨.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) **(أ.و.ت)، سلسة الحركة الوطنية، صندوق ٤٣، ملف ١**، تقرير استخباراتي بتاريخ ١٣ ماي ١٩٤٢.

(24) La dépêche tunisienne, 6 aout, 1947.

(25) Marty (Germaine), «les Algériens … op, cit, p 301.

(26) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud … op, cit, p 42.

(27) Ibid, p 41.

(28) Marty (Germaine), «les Algériens … op, cit, p 317.

(29) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud … op, cit, p 48- 49.

(30) Marty (Germaine), «les Algériens … op, cit, p 316.

(٣١) **(أ.و.ت)، سلسة الحركة الوطنية، صندوق ٤٣،...** مصدر ذكر سابقا، وثيقة عدد ١١٩.

(٣٢) كان أهل الحاضرة في فترة الثلاثينات من القرن العشرين يشتكون من كثرة المشردين ومن العناصر غير المرغوب في وجودها والتي تكاثر عددها بالمدينة، انظر:

(أ.و.ت)، السلسلة أ، صندوق ٤... مصدر ذكر سابقا.

(33) - Marty (Germaine), «les Algériens ... op, cit, p 316.

(٣٤) الماجري (عبد الكريم)، **الجاليات المغاربية بتونس ١٨٣٠- ١٩٣٩**، أطروحة دكتور، إشراف أ.د. محمد الهادي الشريف، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، السنة الجامعية ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

(35) - Marty (Germaine), «les Algériens ... op, cit, p 316.

(٣٦) عزام عوادي (عبد القادر)، "وضعية المهاجرين السّوافة بتونس العاصمة خلال الفترة (١٩١٢- ١٩٦٢)"، **مجلة الرواق**، العدد الأول، جوان ٢٠١٥، ص٨٦- ٩٣، ص ٩٠.

(٣٧) بن جابو (أحمد)، **المهاجرون الجزائريون ونشاطهم في تونس ١٨٣٠-١٩٥٤**، أطروحة دكتورا، إشراف د. يوسف مناصرية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، السنة الجامعية ٢٠١٠- ٢٠١١، ص ٢٠٩.

(38) Haggui (Jamel), Les Algériens originaires du sud ... op, cit, p 78.

(39) Marty (Germaine), «les Algériens ... op, cit, p ٣١٩.

(٤٠) عزام عوادي (عبد القادر)، " وضعية المهاجرين السّوافة ... **مرجع ذكر سابقا**، ص ٨٨.

(41) Marty (Germaine), «les Algériens ... op, cit, p ٣١٨.

(٤٢) **جريدة الزُّهرة**، ٢٦ جانفي ١٨٩١.

(٤٣) عبارة مقتبسة من عنوان المرجع التالي: الباهي (مبروك)، **القبيلة في تونس في العهد الحديث (ق ١٦- ١٩)، من بداوة الجمل إلى بداوة الخروف والحوز. السباسب الوسطى مثالاً**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، ٢٠٠٥.